تاريخ الدولة الاموية في الشام

نظر انتقادي لحضرة الاب هنري لامنس اليسوعي

انتباء بالمجلّات الاوربيّة اخذت مجلة المقتطف الغرّاء في مصر تستفتي الادباء عن بعض الامور الدائر عليها البحث في الصحافة. وهذه الطريقة كما هو معلوم تترقّف على عرض مسألةٍ خاصّة على بساط المفاوضات ليجيب عنها بعض الادباء. وفائدتها ظاهرة للسائل والمسئول معاً فالسائل وهو صاحب المجلة يربح اجلّته ما يغنيه نوعاً عن التحرير بما يرويه من قلم غيره. واما المسئول فينال بعض الشهرة بكتابته اذ يقيم نفسهُ حكماً في ذلك الموضوع يعطي فيه فتواهُ

فما عرضتهُ مجلّة المقتطف على قرّائها في عددها الصادر في شباط الماضي (ص١٢٩) ان يبدوا رأيهم في النهضة الشرقيّة الحديثة. فكان اوّل من سبق واعلن برأيهِ في ذلك هو السيد محمّد كرد علي. قد ارتأى — ونحن نوافقهُ على رأيهِ — ان شرقنا العزيز ترقّى ترقيةً ظاهرة. لكننا رأينا في كلامهِ بعض المغالاة حيث يقول (ص ١٣٠) ان «مصر اصبحت بمعارفها ارقى من اسبانيا اليوم» فحكمٌ كهذا لمّا يدهش سامعيهِ. فنكتفي بذكر كاتب واحد من اهل اسبانية الاستاذ آسين بلاسيوس. فاين في مصر من يشبههُ في معرفتهِ لفلسفة الاسلام والتصوّف الاسلامي. فما أبعد من ابحاثهِ المتعة بعض الابحاث القليلة الجدوى التي تُنشر في مجلة الجامعة العربيّة الدمشقيّة نفسها. فلو قوبل بين هذه وتلك لا نظنّ انّ احداً يفضّل فيها نهضة الشرق على الغرب

وعلى كلّ حال انّنا نضرب الصفح الآن عن النهضة العلميّة في الشرق ونقصر نظرنا في العلوم التاريخيّة التي لم نرَها قد ترقّت رقياً محسوساً. فان كتبة التاريخ لا يزالون يجرون في وضعهِ على طريقة ابن الاثير وابي الفداء اعني انهم يكتفون بنقل ما سبق اليهِ غيرهم دون انتقاد رواياتهم والرجوع الى الاصول التي نقلوا عنها ولأنهم تصرّفوا فيها كما انهم لم يطّلعوا على ما ورد عنها في كتب الاجانب ليقابلوا بينها ويتحقّقوا صحّتها. فهذا الانتقاد والاطلاع على المصادر الاجنبيّة والمعارضة بينها كلّ ذلك لم يكترث لهُ المؤرّخون الاقدمون فيعتبرونهُ من بقايا الجاهليّة ممّا لا قيمة لهُ.

فكثير من المؤرخين المحدثين يتقلدون اولئك الكتبة فيتقلون روايات سخيفة لا تثبت في نظر العقلاء المحققين ويروون ما اثبتوه من الاحصاءات التي لا تنطبق على نظر معقول. وقد ضربنا في ذلك مثل بلدة معرة النعمان التي لم يبلغ قط عددها عشرة آلاف نفس فيروون دون انتقاد انهُ قُتل مئة الف من اهلها استنادًا الى راوٍ قديم. فيدونون ذلك جزافاً كأنَّ قولهُ ضربٌ من الوحي لا يجوز تخطئتهُ

***

فعلى هذه الطريقة كان الشرقيُّون الى عهدنا القريب يكتبون التاريخ

وقد لحظنا في الاجزاء الاربعة التي ألفها السيد كرد علي تحت عنوان خطط الشام بعض التقدُّم من هذا القبيل لكننا لا نراهُ كافياً فانَّ المؤلف الاديب سارع في العمل ولم يكن على أهبة تامَّة لمباشرته وقيامهِ ولاسيَّما للزمن السابق لعهد العرب وذلك لجهلهِ اللغات المدرسيَّة القديمة اللاتينيَّة واليونانيَّة بل لم يعرف الانكليزيَّة والالمانيَّة من اللغات الحديثة. ثمَّ لم يعدل عن اوهام سابقة طائفيَّة وجنسيَّة تؤثر في احكامهِ فتنكب بهِ عن جادَّة الحقّ

ومن هذا الوجه الاخير قد وجدنا على عكس ذلك إفراطاً في الدكتور طه حسين فانَّهُ قد بالغ في نقضهِ لآثار قديمة راهنة. وانَّا استحسنَّا طريقتهُ في تحرُّزهِ من اوهام غلبت على عقول كثيرين كما فعل مثلاً بتزييفهِ لقصائد قديمة منسوبة الى الجنّ في سيرة ابن هشام وفي كتاب الاغاني. فان حُسن الذوق وأصالة الرأي في نقض هذه الروايات الباطلة يفرقان على الاسانيد واعتبار رُواتها

***

وهذا ما يدفعنا الى الاقرار بفضل الشاب الاديب انيس افندي زكريَّا النصولي في كتابهِ الحديث المعنون بالدولة الامويَّة في الشام المطبوع حديثاً في بغداد في مطبعة دار السلام فانهُ اخذ على نفسهِ طلب الحقيقة دون الاستسلام الى اوهام شائعة فكتب تاريخ بني اميَّة بعد وقوفهِ على التآليف التي نشرناها قبل عشرين سنة. فتراهُ يجري على آثارنا في ما كتبناهُ عن معاوية مؤسِّس الدولة الامويَّة وعن ابنهِ يزيد الاوَّل. فنُحيل القرَّاء الى مطالعة فصلهِ الثاني المعنون مأساة الحسين فانهُ بكلّ جدّ وحزم مع كونهِ مسلماً لا يتردَّد في نسبة المطامع للصحابة (ص ٢٩) ويفنِّد ما نسبوهُ زوراً الى

الدين والدين بريء منه (ص ٣٠) ويبيّن ان مأساة كربلاء انما كانت مسئلة سياسيّة ليس الّا. وهذا عين الحقّ أعلن به المؤرخ الاديب لم تأخذه في ذلك لومة لائم من اهل جلدته الذين لا يرون عموماً هذا الرأي (ص ٣٧ الخ). وهذا لا يصدّه عن تأثيم بعض الاعمال التي صدرت عن يد خلفاء بني امية (ص ٢٦٢) قال حفظه الله:

«نحمد للامويّين اهتمامهم بالعمران وانصرافهم اليه وبذلهم الاموال الطائلة في سبيله. ولكنا لا نحمد لهم صنيعهم في تخريب التماثيل فقد اساءوا بذلك الى العلم والفنّ. اساؤوا الى العلم لانا فقدنا بفقدها آثاراً ناطقة عن الايم التي سكنت هذا الشرق الاسلامي قبل العرب. واساءوا الى الفن لأن التماثيل تخبرنا عن مبلغ ما وصلت اليه تلك الامم من رقّة الشعور ومعرفة الجمال. فأمر يزيد بن عبد الملك سنة اربع ومائة (٧٢٢م) بكسر الاصنام في انحاء البلاد كلّها فكُسرت وعُميت التماثيل وخصوصاً في مصر» (الولاة والقضاة ص ٧١-٧٢)

هذا واننا مع موافقتنا لآراء المؤلف في بعض الامور الجوهريّة لا نراه مصيباً في امور أخرى. فانّنا مثلا ندع المسئوليّة على عاتقه في ما كتبه (ص١١٧) عن النصيريّة حيث قال:

«ولا ريب عندنا انّ جماعات النصيريّة في بلاد العلويّين من اعمال سورية قد ورثوا كثيراً من العقائد النصرانيّة والمندئيّة لاختلاط الجراجمة والزطّ بهم. واننا لنوجّه انظار من يدرسون العقائد النصيريّة الى هذه النقطة في ابحاثهم»

وكذلك قد بالغ المؤلف في اطراء الخليفة عمر بن عبد العزيز (ص ٢٢٠ــ٢٣٨). ثمّ انهُ ضيّق نطاق جند دمشق (ص ٢٤٠ س ٤) اذ قصرهُ على الغوطة وقراها وباتينها لانّ هذا الجند كان يشتمل على لبنان وجبل الشيخ وسواحل فينيقية ــ لم يَشد الخليفة هشام كما زعم (ص ٢٥١) مدينة الرصافة لان هذه المدينة سبقت عهد العرب وانّما عُني باصلاحها ــ وكذلك شطّ في وصفه للطرق التجارية في عهد بني امية (ص ٢٦٥) فقال انهم نهجوا طرقها الى بغداد ولم تُبنَ بغداد الّا بعدهم في زمن بني عبّاس

ولم يُصب المؤلف في ذكره للبريد في خدمة التجّار (ص ٢٧٠) فانّ البريد كان مختصّاً بخدمة الدولة وحدها. امّا الافراد فما كان لهم ان يستفيدوا منهُ إلّا شذوذاً

وكذلك بالغ انيس افندي (ص ٣١٦) بنسبته انشاء الشيعة العلويّة الى الاعاجم من الفرس. والصحيح انّ منشئيها كانوا كلهم عرباً وانّما انتمى اليها الاعاجم بعد

ذلك بمدة طويلة الى ان اتحد بنو عباس مع العجم لمحاربة الامويين

هذا ثم نثني ثناء طيباً على مؤلف الكتاب اذ لم يكتف بتسطير تاريخ الامويين السياسي لكنهُ ايضاً اضاف اليهِ فصولاً حسنة روى فيها ترقي التمدن في عهدهم والحركة الاجتماعية بعنايتهم واهتمامهم بالآداب . ونراهُ قد احسن في توجيه نظره لموضوع قريب المنال كتاريخ بني امية في الشام على خلاف كتابهِ السابق في ذكر الاندلس اذ كان يحتاج الى معارف خصوصية وموارد متعددة لا يستطيع الحصول عليها . ونشير اليهِ بان يواصل دروسهُ التاريخية ويسعى في بث حب المطالعة لآثار الاقدمين وانتقادهم في الناشئة بكل نزاهة فيخدمون الوطن مثلهُ خدماً مشكورة ان شاء الله (١

نظر في حركة العلم السنوية

للاب لويس شيخو اليسوعي

ان نطاق العلوم يتسع يوماً بعد يوم بهمة ارباب الدول ووفرة الاكتشافات الجديدة والعدد العديد من الجامعات العلمية والمجلات الراقية حتى لا يكاد العقل البشري يقف الا على القليل منها . وها نحن نذكر بكل اختصار ما استجدّ في العام الماضي من هذا القبيل

﴿ المادّة وتركيبها ﴾ كان الفلاسفة المدرسيّون يعلّمون انَّ المادّة تتألف من عنصرين مادّي وصوريّ وذلك حتى في اقصى ذرّاتها الممكن تقسيمها . وقد عاد المحدثون الى تأييد ذلك الرأي وان عرضوهُ على صورة اخرى فهم يرتأون ان الذرّة (atôme) التي تتحصّل من مجموعها الاجساد تتركّب من نواة مكهربة كهربائية ايجابية يحيط بها

١) لتُصلَح الاغلاط الطبعيّة الآتية في طبعة ثانية (ص ٤٥ س ١٦) تصلح لفظة « اموال » والصواب « امبال » . وفي الصفحة ٢١٥ قد كتب « اخوانهُ » والصواب « اخوالهُ » . وكذلك جاء في الصفحة ٢٦٨ س ٨ « هذه الكنيسة » والصواب « هدم الكنيسة »